البنـــاء الأخلاقي

فـي القرآن الكريم

محمد هادي معرفة *

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

{القسم الأول}

هل الصفات النفسية ، لها منشأ ذاتي، بمعنى انها تنبع من الداخل الإنساني، حتى يكون حمله لها مثالا لصفاته الذاتية واخلاقه الباطنية عاكسا لحقيقة داخله، مقهورا من قبل باطنه وفي هذه الحالة، ماذا سيكون دور التربية أو تعاليم الأنبياء، وما هو تاثيرهما؟

ام ان هذه الصفة الانسانية اكتسابية وقابلة للتغيير والتغيّر وفق التاثير التربوي للاسرة والمجتمع والعادات والتقاليد الموروثة؟

ان ارجاع مفردة (خلق) إلى مصادرها اللغوية واشتقاقها من (الخلق) يكشف لنا ان العرب كانو يعتقدون ان منشأ الصفات

النفسانية ذاتي فطري، وان هذه النوع من الصفات كخصائص وجود الانسان الاخرى ـ تقع في افق الخلقة، وهي خارجة عن اختيار الانسان. ووفق هذا الاعتقاد، كانوا يقولون ـ بصدد الاعتذار عن اعمالهم السيئة: **(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ)**[1]

وفي هذا السياق، حينما نحلل القضية على ضوء المنهج القرآني، نجد ان القرآن ـ باعتبار نزوله بلغة العرب ـ ذكر الصفات الذاتية، لكن هذا لايعني انه يقر بكونها منشأ للاخلاق.

إن المنطق القرآني يشير إلى أنّ البشر في اصل الخلقة، من جوهر واحد، وأن القابليات والقوى المودعة فيهم مصنوعة في قالب واحد أو على نسق واحد، وأن هدف الخلقة هو تهذيب الانسان وتربيته ووسائل ايصاله إلى هذا الهدف متوفرة للجميع على حد سواء، ويبقى امام الانسان نفسه كيفية الانتفاع منها للوصول إلى هذه الغاية. وبالاضافة إلى أن الطبع الأولي للانسان هو الميل إلى الخير والرغبة فيه وأن الميل إلى الشر والرغبة فيه حالة ثانوية طارئة انحرافية... فالانسان بطبعه يميل للخير ويطلب الحسن كما ينفر عن السيء ويميل عن القبيح. والله تعالى منح الانسان القدرة والارادة والاختيار، وخلقه حرا ليمارس الفعل الحسن ويجتنب السيء منه بمحض اختياره وحريته، وهكذا يبرز لياقته في اختيار الاصلح.

الانسان ليس كباقي المخلوقات ـ يقرر مصيره من البداية، بل هو الانسان الذى يشخص لنفسه طريقه وينتخب مسيرة حياته[2]، من هنا

---

(١) المؤمنون:١٠٦.

(٢) (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)النجم:٣٩.

منح الله تعالى العقل للانسان والقدرة على التفكير، واطلق يده لاختيار الاصلح، ليظهر استعداده إلى حيز الفعل، ويتمكن من خلال ذلك من استجلاء دوره في الخلافة الإلهية، وممارسة حمل الامانة المودعة في فطرته عبر الصنع والابداع.

نعم فالانبياء والشرائع السماوية أيضا، وفق متطلبات ذات الانسان[1]، جاءت لتعضد الانسان وتمده بالعون اللازم في خضم صراعه مع الاحداث. ومن هنا تكون المسألة الاخلاقية ليست مسألة فرعية، بل هي مرتبطة بهدفية الخلق الانساني، ومنفتحة على افق الشريعة، وكل ما ينبغي وما لا ينبغي مرتبط بعلم الاخلاق ودائرة في فلكه «**انّما بعثت لاتمّم مكارم الأخلاق**»[2].

وبحث الاخلاق يحتاج إلى مسائل واصول موضوعية تشكل البناء المعرفي لعلم الاخلاق من قبيل: الاختيار والقدرة، السعادة والشقاء، الحسن والقبح العقليين، الهدف من بعثة الانبياء، دور الفطرة والوعي، الخلود في الحياة... وسنعرض لبعضها بالاجمال وللبعض الاخر بالتفصيل...

- **تعريف الاخلاق**

خلْق وخلُق، بمعنى الصفة أو الصفات النفسانية التي يكون لها حالة من الرسوخ، بحيث تكون نافذة في الاعماق ومانحة للداخل شكله الخاص ولونه ونكهته. هذا المصنع الداخلي يقتضي ان تكون

(١) (وآتاكم من كلّ ما سألتموه)ابراهيم:٣٤.

(٢) مجمع البيان، للطبري: ج١/٣٣٣.

افعال الانسان واقواله وتوجهاته في اناء الخارج حاملة معها لون ونكهة الداخل: «**وكل اناءٍ بالذي فيه ينضحُ**».

لهذا، فأنّ للأخلاق جذور داخلية، والافعال الخارجية مرآة للمصنع الداخلي[1].

فالسلوك الحسن عاكس لداخل حسن نقي، والسلوك السيء عاكس لباطن سيء ملوث والقرآن يسمّي كلا السلوكين خُلقا، فيقول للنبي الاكرمﷺ: **(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)**[2].

وحول قوم هود الذين قالوا لنبيهم: **(قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)**[3]، يقول: **(إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ)**[4].

من هنا، يطلق الصفة أو الخلق على المنهج الداخلي والنفسي المؤثر في سلوك الإنسان وتوجهه، سواءً كان حسناً مختاراً ام لا. ولذا جاء نبي الإسلامﷺ لاتمام واكمال المنهج الداخلي المختار الحسن «**إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق**»، أيَ أوصل المجتمع لكماله المنشود، ولهذا أيضاً سمي علم الأخلاق بـ**(الحكمة العملية)**، والحكمة هي الرؤية التي توازن سلوك الإنسان والتي تنبع من طهارة باطنة؛ فقد قال أمير المؤمنينؑ: «**قُرنت الحكمة بالعصمة**»[5].

---

(١) سوف نتعرض إلى المصنع الداخلي لكل إنسان هو من فعله الذي يسعى فيه إلى تربية نفسه وتهذيبها. هو ان منشأ وسر انبعاثه نحو الخير قولا و فعلاً وتوجها. لذا فهذا المصنع الداخلي اكتسابي يتم بناؤه بيد الإنسان نفسه.

(٢)القلم:٤.

(٣)الشعراء:١٣٦.

(٤)الشعراء:١٣٧.

(٥)غرر الحكم، نقلا عن «بيام قرآن رسالة القرآن: ج١٨٣/٧.

يعني إن الحكمة التي هي رؤية داخلية للإنسان مقرونة بالعصمة التي هي اجتناب القذارات والأعمال السيئة.

وبهذا الصدد تطرح قضية (تهذيب النفس)، حتى تتضح رؤية الحكمة وتتبلور رؤى الاعتصام والتربية. ولهذا كان هدف التعاليم الدينية الأولى هو تطهير باطن الإنسان ثم إصلاح سلوكه الخارجي. يقول الله تعالى:

(مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1].

أيَ ان التكاليف النازلة إليكم، لا تريد ان تصعّب الأمور عليكم، بل تريد ان تطهّر باطنكم وتوسع النعم عليكم لتكونوا شاكرين وكذا يقول تعالى:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)[2].

وفي هذه الآية يعدّ القرآن ثلاثة أهداف لبعثة الأنبياء:

١ـ **التزكية**: يعني التطهير والتقويم. وتطهير الباطن من التلوثات المختلفة هو الموجب لاستقامة الإنسان.

٢ـ **تعليم الكتاب**: يعني الشريعة التي هي عبارة عن مجموعة الفرائض والتكاليف المطلوبة من المكلفين.

٣ـ **تعليم الحكمة**: يعني إرساء الرؤية التي تؤثر بشكل مباشر في سلوك الإنسان وتوجهه.

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) الجمعة: ٢.

وهذه الحكمة والرؤية تعد غاية الغايات والهدف الأساسي من إنزال الشرائع الإلهية.

وبالطبع هي هدف التزكية أيضا بإعتبار تأتي الحكمة من خلال تعلم الشريعة واستحصال رؤياها، لذا قال تعالى: **(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)**[1]. ومن يشاء الله تعالى ان يؤتيه الحكمة هو الإنسان اللائق لها. وهذه اللياقة يستحصلها الإنسان بنفسه؛ **(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)**[2]. يعني كل من بادر بوضع قدمه في طريق الهداية، يزيد الله سبحانه في هدايته بأن يرشده إلى كيفية التخلص من الملوثات، وهذه الكيفية هي التقوى. وطريق التخلص من هذه الملوثات، يعني التقوى، هي بذاتها الحكمة والرؤية التي يتم من خلالها التخلص والاجتناب. فالتقوى نوع من التعهد الداخلي الذي يتأتى من الرؤية؛ **(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)**[3].

يعني أن الناس لو أصروا وأقاموا على الاستقامة لأسقيناهم ماء عذباً وهنيئاً، وهذا كناية عن الرؤية والحكمة.

في هذا السياق يمكن وصف علم الأخلاق بأنه: (معرفة المناهج التي تجعل باطن الإنسان نقيا وصحيحا، وتؤدي إلى نقاء وصحة تصرفاته وأقواله وتوجهاته). كقوله تعالى **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ**

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) محمد: ٧١.

(٣) الجن: ١٦.

دَسّاهَا)[1]. ويعرّف المرحوم السيد عبد الله شبر الأخلاق، قائلاً: «فالخُلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر»[2]. هذه الحالة والصيغة الراسخة النافذة هي التي تسمى بالملكة اصطلاحاً، لأنها تسيطر على تمام وجود الإنسان وتهيمن على أفعاله. لهذا فأن خلقته وصفته ان كانت طيبة، تكون الافعال الحسنة مأخوذة منه بيسر وسهولة، وان كانت خبيثة تكون الافعال السيئة صادرة منه بسهولة. يقول الامام الصادق عليه السلام بهذا الصدد: «**ان السريرة اذا صحّت قويت العلانية**»[3]. يعني اذا تعادل الباطن واتزّن صار الخارج قوياً.

- **هدف الأخلاق**

هدف الأخلاق هو الوصول إلى الكمالات المعنوية والحصول على درجة رفيعة من الكرامة الإنسانية، وهي ما خلق الإنسان من اجلها وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة منوطة بكمالاته التي يتحلى بها مسألة الفوز (نيل الهدف) والفلاح (الانتصار على العلائق المانعة)، اللتين يطرحهما القرآن، تبرزان الهدف من الأخلاق وهوالاستقامة على الخصال الحميدة. هذا بالإضافة الى ان القرآن قد أوضح الطريق للوصول إلى هذا الهدف بشكل تام، وأرشد الناس الى هذه الغاية القصوى بشكل واضح، وساق الإنسان ودلّه على

(١)الشمس: ٧-١٠.

(٢)كتاب الأخلاق، ص١٠.

(٣) اصول الكافي: ج٢/٢٩٥، ح١١.

هدفه من خلال الترغيب والتشجيع والحث مادة (الفلاح) ومشتقاتها كثيرة في القرآن، واعتبرها كمال القصد والهدف من تربية الإنسان وتخلقه بالأخلاق الكريمة:(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)[1]، (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[2]،(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[3]،(وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[4]، (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[5]، (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[6].

في إبتداء سورة البقرة بعد مدح المتقين وبيان صفاتهم (الإيمان بالغيب، واقامة الصلاة وإعانة المعوزين، الإيمان بالوحي وشرائع الأنبياء جميعهم)، يقول تعالى: (أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[7].

من هنا يكون الهدف والغاية من تهذيب النفس وحسن السلوك هو الفلاح والفوز ، ويذهب الراغب الأصفهاني إلى ان الفلاح هو الحصول على سعادة الدنيا والآخرة، ويشير إلى الآيات السالفة الذكر.

---

(١)الأعلى: ١٤.

(٢)آل عمران: ١٣٠.

(٣)الجمعة: ١٠.

(٤)الحج: ٧٧.

(٥)الحشر: ٩.

(٦)آل عمران: ١٠٤.

(٧)البقرة: ٥.

- **القدرة على السير باتجاه الهدف**

من المنظور القرآني: كيف ما يكون سعي الإنسان، خصوصا في خضم سيره باتجاه السعادة والكمال. لابدّ ان ينتهي إلى نتيجة، ما دام الإنسان يحثّ خطاه باتجاه قصده المنشود وفي موضعه المناسب سنذكر ان الإنسان يصنع مصيره بنفسه، ويبني مستقبله سواء كان صالحا ام طالحا، من خلال سعيه وممارساته... قلم التقدير وضع بيده ليملأ صفحات حياته: **(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ❖ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ❖ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى)**[1]، **(مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)**[2]، **(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)**[3]، **(وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)**[4]، **(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)**[5].

هذه الآيات جميعها تؤكد على حقيقة ان نتائج أعمال الإنسان ـ صالحها وطالحها ـ لا تذهب سدى، بل ترجع إليه. في هذه الآيات تصريح بأن هدف التكليف الشرعي هو الارتقاء بالانسان والا فالله تعالى ليس محتاجا لايّ شي وايّ احد: (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ ربّي غنيٌ كريم)[6].

من هنا كان كل سعي مشكور، ولا يذهب هدرا أو بدون مقابل:

---

(١)النجم: ٣٩-٤١.

(٢)الاسراء: ١٥.

(٣)الإسراء: ٧.

(٤) فاطر: ١٨.

(٥) يونس: ٥٢.

(٦) يونس: ٥٢.

(إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)[1]، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين بالإضافة إلى ان التكليف من جانب الحكيم له هدف، ويصدر من اجل سعادة المكلف وخيره، بالشكل الذي يتمكن المكلف من الوصول إليه، وإلاّ فالتكليف عبث، وهذا التكليف دليل على ان الانسان له دور مؤثر في خضم سيره باتجاه هدفه والاّ فمن المحال ان يكلف الله تعالى انسانا لا طريق له باتجاه هدف التكليف أو يمتنع عليه التكليف. وكل تكليف بالمحال (في حالة عدم تمكن المكلف من الوصول إلى الهدف) أو التكليف المحال (في حالة سلب الاختيار عن الانسان والقدرة على فعل التكليف وتركه)، قبيح وممتنع على الحكيم المتعالي سبحانه.

- **طريق الوصول إلى الكمال**

يقول الله تعالى في القرآن الكريم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)[2].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

في الآية خطاب للمؤمنين: إنكم إذا قدمتم التقوى وتصرفتم في الحياة على ضوء التعهد بها، سوف يشف داخلكم وينقى، وستتمكنون من تشخيص الحق من الباطل. وهذه هي الحكمة التي جاءت في قوله تعالى: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)[3].

لذا كان طريق الوصول إلى الكمال الذي هو الغاية القصوى من التربية الدينية والأخلاقية، هو الإيمان والعمل الصالح. فإذا تكامل

---

(١)الكهف: ٣٠.

(٢)الأنفال: ٢٩.

(٣)البقرة: ٢٦٩.

الإيمان وانجز العمل الصالح بالأخلاق، يحصل القرب من الحق تدريجيا: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)**[1]. إذن فطريق الوصول إلى الكمال الإنساني هو الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح، وهو ما يعبر عنها (بالتقوى) التي هي عبارة عن تقوى الله والتعهد في السلوك والفعل. لذا فان أول نقطة في الحركة باتجاه الكمال هي الإيمان الصادق بالله تعالى، الاستقامة على هذا الإيمان والحركة بهذا الاتجاه: **(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)**[2]، **(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)**[3].

وخلاصة الكلام هو ان السلوك المنضبط على ضوء التعهد الإيماني يوصل النوع الإنساني إلى منبع الحياة وعين الصواب، ويكون سببا لاستنزال العناية الإلهية: **(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)**[4].

التقوى هي التعهد الذي ينهض من اعتقاد الإنسان، وهي خلاصة الإيمان الصادق والعمل الصالح. وتتزايد حسب درجات الكمال الإنساني. وفي النتيجة: الحركة باتجاه الكمال تبدأ بالاعتقاد وتطبع أعمال الإنسان وسلوكه، وتوصله بالنهاية إلى هدفه. لهذا

(١)البينة: ٧.

(٢)فصلت: ٣٠.

(٣)الرعد: ٢٨.

(٤)البقرة: ١٩٤.

يكون طريق الوصول إلى الكمال هو العمل على ضوء الشرع وحده **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)**[1]. أيَ ان الحياة المعنوية للإنسان هي في اتباع أوامر الشرع ونواهيه.

- **مكانة الأخلاق**

في المنطق المادي. لا توجد مكانة خاصَة للأخلاق، بل يعتبرونها معيقة للحياة ومانعة من الوصول إلى لذ ائذها، لأنهم يعتبرون السعادة هي في الحصول على لذائذ الحياة المادية. والأخلاق حيث تنطوي على جنبة معنوية، فهي مرفوضة من هذه الجهة. فيما يعتبر القرآن ان الأخلاق لها مكانة سامية وانها تسمو بجميع نواحي الحياة الإنسانية. فالحياة ليست منحصرة بالمادَة، بل لها جنبة مادية وأخرى معنوية، والإنسان ليس موجودا ماديا فحسب، بل مركبَا من جسم وروح، بحيث لايمكن فصل احدهما عن الآخر. من هنا لا يمكن إغفال الجنبة المعنوية للحياة والنظر إليها من زاويتها المادية، فكما تحتاج الجهة المادية في الإنسان إلى تغذية، كذلك تحتاج جهته المعنوية إلى تغذية، وتغذية الروح هي عبارة عن رعاية الأصول الأخلاقية ومبادئها. فإذا لم تكن الأخلاق ، لايتمَ إشباع الحاجة الروحية للأنسان ولا يملأ محتواه الداخلي. ان الذين ينظرون إلى الحياة من زاوية مادَية فقط ويحملون هم الجهة الجسمية فحسب يحسون في داخلهم بقلق شديد وعطش حارق ، يبعث الألم فيهم على الدوام:

(١)الأنفال: ٢٤.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)[1].

يعني كل من لا يذكر الله تعالى، فكل نواحي حياته ستكون صعبة عليه، وسوف يحس بالاختناق في داخله. وهكذا حياة ستفقد حتى إحساسها باللذة، وسيكون مصيرها القلق الدائم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ◆ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[2].

وان المجتمع الذي ينسى فيه الله تعالى والمعنويات، في الحقيقة، تنسى فيه الكرامة الإنسانية، وهكذا مجتمع يكون همه الأكل والشرب والاندفاع في علائق الحياة المادية، لا يكون فيه وجود للإحساس بالكرامة الإنسانية والعدل والمشاعر النبيلة، ويتحول المجتمع بعد ذلك إلى جهنم حارقة يلقي أفراده انفسهم في نارها. والأفراد في مجتمع من هذا النوع الذي لا حضور فيه لذكر الله والأمور المعنوية، لا يمكن لهم أبدا الإلتذاذ بالحياة، بل لايمكن ابدا الإحساس بحياة ما، لأن لذة الحياة تكون حيث توجد كرامة، والحياة مع الرذيلة هو سقوط في حفرة القذارة والشذوذ. يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)[3]. و(أيها) خطاب للمؤمنين ليستجيبوا بأرواحهم وقلوبهم، ويجعلوه برامجا لحياتهم. ويصف

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) الحشر: ١٨-١٩.

(٣) الأنفال: ٢٤.

الخطاب ما يقوله الله ورسوله - يعني الشرع - بأنه (لما يحييكم)، يعني ان اتباع الشرع هو اتباع الحياة ذاتها. فحياة الإنسان الحقيقية هي باتباع الأوامر والنواهي الإلهية، إن في ذلك إحساسا حقيقيا بالحياة ولذائذها، عبر ما يتناعم من الإلتقاء بين الشريعة والحياة والعزة والكرامة الإنسانية. فالمجتمع الذي يسود فيه حكم الشرع، في الحقيقة، يسود فيه حكم الكرامة الإنسانية، لذا يقول الله تعالى في سياق التحذير: **(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)**.

والقلب في الإصطلاح القرآني هو الشخصية الإنسانية السامية، الذي ما إن يتم إقصاؤه عن الشريعة ومقاصدها، فسوف يقع اختلال في الإنسان والإنسانية!، وقد لحظ الإسلام في جميع شؤون الحياة الفردية والجماعية، مكانة الأخلاق إلى جنب مقرراته وتكاليفه، وضمن نظراته الأخلاقية جميع أوامره الشرعية: **(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)**[1]، العدل هو رعاية القوانين الإلهية العادلة التي وضعت لتنظيم الحياة، وطرحت في الآية إلى جنب ذلك مسألة الإحسان أيضا وهي رعاية الجوانب الأخلاقية، في السلوك الخلاق إزاء الأحداث وإشاعة روح البر والتعاون والتسامح بين أبناء المجتمع.

في الموارد التي تتعلق بالنساء، يقول الله تعالى: **(وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)**[2]. أي لا تصعبوا الأمور وتعقدوها، بحيث تطالب المرأة بنصف المهر بصورة قاطعة، والرجل لا يدفع اكثر من النصف أبدا، ففي هاتين الحالتين رعاية مرة للحكم والعدل.

(١) النحل: ٩٠.

(٢) البقرة: ٢٣٧.

وتبقى مسألة الإحسان ومراعاة الفضل والكرامة. يقول المرحوم الطبرسي في تفسير هذه الآية: «أي لا تتركوا الأخذ بالفضل والإحسان بينكم والإفضال، فتأخذوا بمر الحكم واستيفاء الحقوق على الكمال»[1].

وفي الواقع، ان من مميزات الشرائع الإلهية انها ممتدة في ثلاث أبعاد: ضمان حقوق الأفراد، ومراعاة حقوق المجتمع، وحفظ كرامة الإنسان. وفي القوانين البشرية ـ مهما وضعت بدقة وأمانة ـ تكون العلاقة بين أفراد المجتمع على ضوء المنفعة والمصلحة، ومسألة الأخلاق والأمور المعنوية لا وجود لها فيها. لكن في القوانين السماوية بالإضافة إلى البعدين المذكورين، أي حق الفرد والمجتمع وتنظيمهما بشكل متكامل ـ تلحظ الأمور المعنوية الإنسانية أيضا.

وعليه، فالأخلاق ـ من منظور التشريع الإلهي ـ لها قيمة إنسانية راقية وتلعب دورا خلاقا في الحياة الفردية والجماعية. وفي بحث سابق بعنوان (الإعجاز التشريعي للقرآن) فصلنا هذه المسألة، وقلنا بهذا الصدد[2]؛ من هذا المنظور طرح الإسلام مسألة (الأخوة الإسلامية) المستلزمة للعدالة والمساواة، بعناية فائقة، وتتبعها في جميع مراحل الحياة الإنسانية: **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)**[3]. وبصدد رعاية أمور الأيتام يقول تعالى: **(وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**

(١) مجمع البيان: ج٢/٣٤٢.

(٢) راجع التمهيد في علوم القرآن: ج٦/٢٦٣ فما بعدها.

(٣) الحجرات: ١٠.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)[1]. (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)[2]. وفي بيان حرمة الغيبة، يجعل الله تعالى المغتب أخا للمغتاب، وهذا من افضل المناهج الأخلاقية الرادعة التي تحرك الناحية الروحية والعاطفية للإنسان: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)[3]. وحتى في المسائل الجزائية التي تعدّ من اشد المسائل القضائية، يلاحظ طرح مسألة الأخوة. ففي القتل مثلا حيث يوجد حس الانتقام ولزوم استعمال اللهجة الشديدة تجاه القاتل. ومع اعتبار قتل النفس المحترمة معادلا لقتل الناس جميعا: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا)[4]، ومع ان التشريع منح لأولياء المقتول سلطة قاهرة على القاتل: (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)[5].

مع وجود هذا كله يلاحظ جر مسألة الأخوة إلى هذا المجال، وعدّ أولياء المقتول اخوة للقاتل، ليسترعي انتباههم إلى مسألة العطف والأخوة الإسلامية، بالإضافة مسألة العدالة والمساواة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ❖ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[6]. هذا من أرقى المناهج التي ينظم بها القرآن

(١)البقرة: ٢٢٠.
(٢)آل عمران: ١٠٣.
(٣)الحجرات: ١٢.
(٤)المائدة: ٣٢.
(٥)الإسراء: ٣٣.
(٦)البقرة: ١٧٨-١٧٩.

العلاقة بين أفراد المجتمع، لئلا يقصر الإنسان نظره على مسائل المنفعة، ويمدّ نظره أيضا إلى موضوع الكرامة الإنسانية...

وخلاصة القول هي ان الأخلاق من المنظور الإسلامي، دعامة قوية لتنظيم علاقات الأسرة والمجتمع وحتى العلاقات الدولية، ولا يوجد مورد واحد تغيب عنه النظرة الأخلاقية. وهذا من المميزات الحضارية للشريعة الإلهية.

• إمكانية التربية ومسألة الجبر

ربما يقال أنّ الخُلق حالة باطنية وصفة نفسية على غرار الخلق والوجود الجسمي للإنسان، لايمكن تغييره. فكما ان الخلقة ـ سواء كانت قبيحة أم جميلة ـ غير قابلة للتغيير، فكذلك السيرة ـ سواء كانت طيبة ام خبيثة ـ والحالات الباطنية لاتكون قابلة للتغيير، وكل من خُلق على سجيّة معيّنة سوف يستمر عليها إلى الأبد. وجاء في الحديث النبوي الشريف «**السعيد من سعد في بطن أمّه، والشقي من شقي في بطن أمّه**»[1]؛ وفي كتب الحديث لأهل السنة، باختلاف يسير، جاء التعبير: «**جفّ القلم بما هو كائن فلا مقدور بعد سبق التقدير**»[2].

وجاء في صحيح مسلم أنّ الجنين بعد أربعين يوماً من استقراره في بطن أمّه، يقول الملائكة الموكلون به: «**يارب، ما رزقه؟ وما أجله؟ وما خلقه؟ ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً**»[3]

---

(١) عوالي اللئالي: ج١/٣٥، ح١٩. مسند أحمد: ج٢/١٧٢. بحار الأنوار: ج٥/١٥٣.

(٢) راجع: جامع البخاري: ج٧/٥، وج٨/١٥٢. مسند أحمد: ج١/٢٩٣و٣٠٣و٣٠٧. وج٢/١٧٦و١٩٧.

(٣) صحيح مسلم: ج٨/٤٦.

إذن كما انّ رزق كل إنسان وأجله بيد التقدير، كذلك خلقه وصفته مودعان بيد التقدير أيضا. وهذه الأحاديث سوف نبحث متنها وسندها في نهاية الفقرة. لكن هذا الأحاديث ـ والتي تدلّ على الجبر حسب الظاهر وتعتبر الإنسان تابعا في حياته لقلم التقدير ومصيره المقرر منذ البداية ـ على فرض صحّة صدورها، لابدّ أن توجّه أو تأوّل، والاّ فهي مرفوضة لأنها على خلاف ظاهر القرآن بل على خلاف صريحه، ومتناقضة مع العقل والفطرة والحكمة من التكليف. القرآن يعتبر الإنسان صاحب عقل وفكر وقدرة على الإيجاد والإبداع وصاحب إرادة واختيار، فهو الذي يصنع مسيرة حياته ويقرر مصيره بنفسه، وينتخب طريق صعوده في درجات الكمال أو هبوطه في دركات الضلال، وليس كباقي الموجودات بحيث يسير في فلك النظام الكوني ويدور مع حركته. يقول الله تعالى **(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ❖ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ❖ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)**[1]، **(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ)**[2]. ولكن الله تعالى لا يقبل هذا العذر غير الموجّه ويجعلهم في مورد المؤاخذة: **(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)**[3]، ولولا وجود اختيار لدى الإنسان وإرادة لم يكن هنالك مجال للمؤاخذة. يقول الإمام الصادق عليه السلام في ذيل الآية المتقدمة: «**بأعمالهم**

---

(١) النجم: ٣٩-٤١.

(٢) المؤمنون: ١٠٦.

(٣) المؤمنون: ١٠٥.

شقوا...»[1] يعني أن هذا الشقاء يأتي نتيجة أعمالهم السيئة التي اقترفوها وصنعوها لأنفسهم.

وقد ذكر الله سبحانه الإنسان لما أهبطه إلى الأرض قائلا: **(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعا ... أَشَدُّ وَأَبْقَى)**[2] في هذه الآيات خوطب آدم وحواء، لكن المقصود هو الناس الذين يسكنون الأرض، ولهذا أبدل ضمير المثنى بضمير الجمع في الخطاب، بأن طريق الهداية والحياة السعيدة سنوضحه لك بحيث لن تضلَ وتشقى ما دمت متبعا له سالكا فيه ... إلى آخر دلالة الآيات التي تنذر بالعذاب الأشد والأبقى في الآخرة.

إذن ما يصدر عن الله تعالى هو إرائة الطريق وكشفه، ويبقى بيد الإنسان إستقبال الطريق أو رفض السير فيه، ليتحمل نتيجة كلَ من الموقفين: **(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)**[3].

وعليه، فالإنسان ـ وفق المنظور القرآني ـ مخير في اختيار الأصلح له ولا قهر ولا جبر في البين أبدا: **(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)**[4]. **(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)**[5].

وكل من اختار طريق الهداية والحق يعده القرآن سعيدا، فيما يعد شقيا كل من اختار طريق الضلالة والباطل: **(يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ**

---

(١)توحيد الصدوق، ٣٦٦.

(٢)طه: ١٢٣-١٢٧.

(٣)البلد: ١٠.

(٤)الكهف: ٢٩.

(٥)البقرة: ٢٥٦.

إلاّ بإذنه ... غيرَ مجذوذٍ)[1]؛ فمن الوضح انّ الشقاء هو مادة جهنم والسعادة هي مدعاة رضوان الله تعالى، وإذا لم يكن الشقاء والسعادة نتيجتين لعمل الإنسان، لا تكونان مدعاتين لجهنم أو رضوان الله تعالى. وهنالك آيات كثيرة بهذا الصدد تكشف عن كون الإنسان مسؤولا عن أعماله وحرا في اختيار الخطأ أو الصواب: (ولتسألنّ عمّا كنتم تعملون)[2]،(وإنّه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تسألون)[3]. (وقفوهم إنّهم مسؤولون)[4].

في الأصل، بعثة الأنبياء ونزول الشرائع السماوية والوعد والوعيد للترغيب والترهيب والأمر والنهي والثواب والعقاب وكل أنواع التكليف وجهود الإصلاح الخيرة على طول مراحل الحياة البشرية، دليل على إمكانية التربية وعدم جبر الإنسان على السير باتجاه مصيره المعين من البداية، وإلا لكانت هذه الجهود ذاهبة سدى وعلى خلاف الحكمة الإلهية. فالتكليف ـ على ضوء مفهوم الحكمة ـ هو اختبار، والإختبار لا يكون دون اختيار.

الفطرة والوجدان البشري يشهدان بحرية الإنسان وانعتاقه عن قهر أي ظرف، والتجربة أيضا تشهد بأن الإنسان قادر على تغيير مجرى الأحداث في أحلك الظروف الصعبة. نعم، الظروف المساعدة أو غير المساعدة متفاوتة بالنسبة للأفراد والجماعات، لكن هذا التفاوت أمر

---

(1)هود: ١٠٥-١٠٨.

(2)النحل: ٩٣.

(3)الزخرف: ٤٤.

(4)الصافات: ٢٤.

عارض نسبي، وإلا فالإنسان مخلوق من معدن واحد وجوهر واحد.

هذه الظروف المتفاوتة لها دور في إيجاد القابليات المختلفة، لكن ليس إلى حد الإلجاء والقهر بحيث لا يمكن للإنسان أن يفلت من ربقة الظروف تلك. الإنسان يملك الإرادة القوية والتصميم المحكم الذي يتغلب بهما على جميع الظروف الصعبة، ويملك القدرة على مجالدة تلك الظروف والتغلب عليها. فالإنسان ليس ضعيفا بحيث لا يملك الحيلة، بل هو الذي يصنع الحيلة، بشرط أن لا يودع نفسه بيد الرغبات وأن لا يحولها إلى نفس حقيرة طامعة.

فإذا تكلم القرآن عن بعض الناس وحقارتهم فهو ناظر إلى هذه الحالة من حالات الإنسان **(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ❖ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ❖ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)**[1].

ففي هذه الآية أبرز الله تعالى إرادته ثلاث مرات في حفظ كرامة الإنسان، ليسمع أولئك اللاهثين وراء رغباتهم والساعين بذلك إلى جرّ المجتمع الإنساني إلى الإنحراف والضياع.

لكن الله تعالى مطلع على أسرار خلقه، يعلم أن الإنسان لا يملك الصبر الطويل على المقاومة إزاء الشهوات، فلم يعقّد عليه التكليف وأعانه عليه. في هذا السياق يأتي مفهوم الرأفة والرحمة الإلهية إلى جانب العلم والحكمة الإلهية.

---

(١) النساء: ٢٦-٢٨.

• دور الإيمان في الأخلاق

ولأن الإيمان يشكّل منطلقا للقيم الأخلاقية جميعها ودافعا مؤثرا لإنجاز الأعمال الصالحة، فهو يعدّ نقطة الإنطلاقة والتحركَ المتجه نحو الكمال الإنساني. فإذا كان الإيمان صحيحاً وراسخا، فهو بنفسه يسوق الإنسان باتجاه كماله المنشود، بشرط أن لا يكون إيمانا قشريا عائما: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)[1]. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)[2]. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)[3].

وعليه، فأساس الأخلاق الحسنة هو الإيمان بالله واتّباع الشريعة، والاعتقاد بخلاف ذلك يؤدي إلى خطر الضياع والسقوط والانحراف. فالإيمان اعتقاد وحالة قلبية، لكنه يعد اختيارا، لأنه يتفاعل في داخل الإنسان وفق إرادته واختياره. وهذا ما يتراءى من ظواهر الآيات القرآنية، فهو أي الإيمان عمل اختياري مطلق مع كونه باطنيا مرتبطا بقلب الإنسان.

الإيمان ليس علما ويقينا فحسب، لأن العلم قد يحصل بصورة غير اختيارية، ولكن الإيمان لا يمكن له ذلك، فما لم يؤمن الإنسان

---

(١) الحجرات: ١٤.

(٢) النساء: ١٣٦.

(٣) الأنفال: ٢٤.

بنفسه لا يحصل له الإيمان أبدا.

نعم الإيمان له مقدمات ودواع، منها: العلم والمعرفة، فما لم يتوفر الإنسان على العلم والمعرفة لا يمكنه تحصيل الإيمان بشكل صحيح وراسخ، لكن لا يوجد تلازم وارتباط علي بين العلم والإيمان. فمن الممكن أن يحصل الإنسان على العلم واليقين لكنه لا يريد أو لا يستطيع بسبب ما أن يعتقد ويؤمن. فبسبب غلبة هوى النفس أو مكائد الشيطان قد يمتنع إيمان شخص ما؛ **(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً)**[1].

كان الفراعنة يؤمنون بأن نبوة موسى حق، ولكن بسبب أنانيتهم وتكبرهم وظلمهم كانوا يجحدون بها.

والنتيجة هي أن الإيمان عمل اختياري مرتبط بالقلب، وأن العلم والمعرفة يمكن أن تكون منشأ وداعيا له وتبقى الموانع التي ينبغي رفعها. لهذا فالإيمان يدور في فلك الأخلاق بل هو سرها ومنشأها، يدفع الإنسان باتجاه تحصيل كماله الإنساني المطلوب.

من هنا، فلكي نكتسب الكمال ونتخلق بالأخلاق الكريمة، علينا أولا تحصيل العلم والمعرفة، ليكون إيماننا راسخا منطلقا من أساس سليم **(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)**[2].

(١) النمل: ١٤.

(٢) التغابن: ١١.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی